المكان الأليف في شعر الوأواء الدمشقي

The Domestic Place in the Poetry of AL-Wawaa Damashqi

الباحثة مروة زهير عبد الزهرة
مديرية تربية كربلاء، وزارة التربية العراقية، العراق

أ.د فهد نعيمة البيضاني
كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة كربلاء، العراق

Marwaa Zuhair Abdulzahra Mehd
The Iraqi Ministry of Education, Karbala Education, Iraq

Prof. Dr. Fahad AlBaidani
College of Education for Human Sciences, Karbala University, Iraq

الملخص:

للمكان أهمية كبيرة في حياة الشاعر الجاهلي إذ إن المكان يساعد على شحن نفسية الشاعر وذاتهِ بالمواقف والخيرات التي عاشها فيها، ويكشف لنا ديوان الشعر العربي مجموعة من الاشعار والقصائد المعبرة عن هذا التلازم وهذهِ العلاقة المتينة بين المكان ونفسية الشاعر وذاتهِ، فهذا الترابط هو الذي يساعد على تداعي الذكريات التي تنتج لنا شعراً راقياً يُشير إلى أهمية المكان وما يحمله من ذكريات في نفس الشاعر، فالمكان ليس مساحة من الأرض يعيش عليها الشاعر وانما يرتبط بها بأحاسيسهِ ومشاعرهِ عبر ما يمكنهُ المكان من ألفة وسعادة وحنان ودفئ على الرغم من أن المكان الاليف يُعدُّ من الأمكنة الدالة على محل سكن الشاعر وعلاقتهِ بأهله واحبته وتكوين شخصيته عبر العادات والتقاليد التي عاشها في ذلك المكان إلا أنّهُ لا نجد إشارة واضحة عن المكان الاليف الذي عاش فيه شاعرنا الوأواء ويرجع ذلك إلى فقرهِ وعُسرُ حالتهِ المادية ولكننا يمكننا أن نُشير إلى وفرة من الأماكن الطبيعية التي اشعرت الشاعر بالالفة والارتياح والسعادة والحماية وهذه الأماكن هي الرياض والحدائق والبساتين وما يتخللها من أشجار وثمار وازهار.

الكلمات المفتاحية: المكان، المكان الأليف، شعر الوأواء الدمشقي

Abstract:

The place is of great importance in the life of the pre-Islamic poet, as the place helps to charge the poet's psyche and himself with the situations and experiences he lived in. The association of memories that produce fine poetry for us indicates the importance of the place and the memories it carries in the poet's soul. Indicating the place of residence of the poet and his relationship with his family and loved ones and the formation of his personality through the customs and traditions that he lives in that place, but we do not find a clear indication of the domestic place in which our poet (Alwawa'a) lived and this is due to his poverty and hardship of his financial condition, but we can refer to the abundance Among the natural places that made the poet feel intimacy, comfort, happiness and protection, these places are meadows, gardens, orchards, and the trees, fruits and flowers interspersed within them.

Keywords: place, familiar place, poetry of the damask wawa

المقدمة:

يكشف لنا ديوان الشعر العربي القديم عن طائفة من الاشعار الناقلة لرؤية الشاعر العربي القديم وموقفة من المكان، وتبين كيف أنّ الشاعر على امتداد تاريخيهِ ظلَّ متصلاً بالمكان ومتعلقاً بِهِ ومُلحاً بإتجاه التعَبير عن هذهِ العلاقة لغوياً.

ولا ريب أنَّ الديار والمنازل تقع في طليعة الأمكنة المحببة لنفس الشاعر، وبقدر ماهي وجود حقيقي قد مثلث رموز الحماية والحنوّ والدَفء وكإنَّ لها ما يزال ذلك التأثير المتعاظم من الاحساس بالألفة والأمان[1]، وعند إمعان النظر في ديوان الشاعر

لا نجد إشارة واضحة الى ذلك المكان الأليف الخاص بالشاعر والدال على محل سُكناه، على الرغم من أنَّهُ يُعدّ المكان الأول المحتضن للإنسان وفيهِ عاش حياتهِ واستمد عاداتهُ وتقاليدهُ، ونرجع ذلك الى فقرهِ وحالته المادية المُتعسرة[2]. إلا إننا نجد وفرة الأماكن الطبيعية التي تشيع في نفس الشاعر البهجة والارتياح والهدوء ومتعة النظر اليها، وتبعد عنهُ القلق والتوتر وتشيرَهُ بالألفة والحماية والأمان وفي طليعة هذهِ الأماكن وأقربها الى نفسِهِ وقلبِهِ الرياض والحدائق والبساتين والاشجار والثمار والأزهار والورود وألوانها.

مشكلة الدراسة:

تدور مشكلة الدراسة حول تلمُّس واقع المكان الأليف في الوأواء الدمشقي، ويمكن صياغة مشكلة الدراسة في التساؤل الرئيسي التالي: ما مدى توافر معالم المكان الأليف في شعر الوأواء الدمشقي؟

منهج الدراسة:

لقد شكل الوصف جانباً مهماً في شعر الوأواء لذلك عمدت الباحثة على اختيار المنهج الوصفي التحليلي لبيان الخصائص التي تتعلق بالمكان لدى الشاعر بوصفه العنصر الأبرز في شعره.

اهداف الدراسة:

1- التعرف والالمام بالجوانب الأدبية التي يحفل بها شعر الوأواء الدمشقي.
2- بيان الصور الفنية التي اتخذ من المكان وسيلة لبيانها والتعبير عنها.
3- التعرف على شخصية الشاعر ومنزلته الأدبية وما يميزه عن غيره من الشعراء المعاصرين له.

[1] سعيد يقطين (1997م): قال الراوي البنيات المكانية في السيرة الشعبية، ط1، بيروت، المركز الثقافي العربي، ص241.

[2] الديوان، ص10.

4- التعرف على الأغراض الشعرية السائدة في العصر العباسي والتي مثلها الشاعر في شعره.
5- بيان العنصر المكاني الذي بثّ فيه الشاعر احساسه ومعاناته ومشاعره بتذكر الاحداث التي دارت فيه.

أهمية الدراسة:

إن الشاعر الوأواء واحدٌ من الشعراء الذين جذبتهم مفاتن الحياة والواقع الاجتماعي والسياسي السائد آنذاك والمتميز بالتقرب إلى الخلفاء والامراء عبر مدحهم، فضلاً عمّا كان يسود الحياة من أساليب للترف واللهو الممتزج بالطبيعة الساحرة لبلاد الشام الأمر الذي جعلني أغور في أعماق حياة الشاعر وهو غزارة شعره وقلّة الدراسات عليه، ولأنه شاعر جدير بالدراسة والذكر، إذ أنّه يُشكل ظاهرة أدبية لم تخرج إلى النور بعد.

أوّلاً: المكان الطبيعي الأليف:

عبَّر الشاعر الوأواء عن عَلاقته الوطيدة بالمكان الطبيعي، ويمكن تلمسُّ تلك العَلاقة عبر ما خلفَّهُ من أوصاف للأمكنة المحبّبة إليه وما حفل بهِ ديوانهُ من تكرار لتلك المشاهد المجسدة لتلك العَلاقة. وتأتي في طليعتها مجموعة الصور المرتبطة بالمكان الطبيعي المتصل بطبيعة بلاد الشام وخضرتها وأجوائها الربيعية، وأثر تلك الأجواء على شجرها وثمارها ورياحينها وورودها وانهارها ولا غرو أن "حُظيت الطبيعة بنصيب وافر مِنْ من الشعر"[1] فالمكان الطبيعي هو" ذلك المكان الذي اوجدهُ الله تعالى في الطبيعة دون تدخل الانسان في تكوينهِ"[2]

وقد تكشفت عُرى العلاقة بالأمكنة الطبيعية عبر حشد لا بأس به من مقدمات القصائد والمقطعات والأبيات، واظهرت عناية الشاعر بهذه الأماكن دلالة خاصة بما تضيفه من هناء وصفو يغمر الشاعر أو أي انسان ونتج عن ذلك الإكثار؛ وصفهِ للحدائق والبساتين والورد وعبّر عن جمال أنواعها وألوانها مُستمداً كل ذلك من خبرته المباشرة، فقد عاش حياته في مدينة دمشق المشهورة بخضرتها الساحرة ومناظرها الخلابة كما وصفها ابن حوقل. حيث قال عنها أنها أثقل مدينة في الشام جمالاً وسحراً نظراً لتأسيسها في أرض مستوية محاطة بالجبال، تحفُّ بها المياه الكثيرة والأشجار والزروع والمساحات الخضراء[3].

[1] ناظم رشيد (1989م): الأدب العربي في العصر العباسي، جامعة الموصل دار الكتب للطباعة والنشر، ص215.
[2] حربي نعيم محمد الشبلي (2002م): المكان في شعر أبي العلاء المعري، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القادسية، ص27.
[3] ابن حوقل أبي القاسم بن حوقل النصيبي (1992م): صورة الأرض، ط1، القاهرة، مكتبة الحياة، ص160.

يدل على ما تقدم قول الوأواء واصفاً هذا الجمال:

ذرى شجـرٍ للطيـرِ فيـهِ تشاجُـرُ كـأَنَّ صُنُـوفَ النـور فيـه جِواهِـرُ

كـأنَّ القَماري(*) والبـلابِـلَ بَينَنـا قيـانٌ وأوراقُ الغُصِـونِ سَتـائـرُ (1)

استعاد الشاعر ذكرى صور جميلة مُستقاة من الطبيعة، إذ تختلط الاوصاف مع الاشارة إلى القصور، فالشاعر وصف لنا صور جميلة للطبيعة، وبفعل لذة الخمرة ينقل ما يجدهُ في مجلس السحر والمنادمة لتكون لوحة بعدها النفسي الراحة والامان والدعة بواسطة خيالة الخصب إلى الطبيعة التي تجعل من يسمع هذهِ الابيات كأنهُ في أجواء قصر فيه من الخدم والعزِ والترف، وينشر فيهِ الى الستائر والقيان والذهب والدُر، فهذا الخيال الخصب للشاعر حول المألوف واقعاً فنياً يختلف عن الواقع الخارجي.

ها هو الشاعر يلجأ إلى ذلك المكان هربًا من واقعَهُ المؤلم، وبحثًا عن الصفاء في أحضان الطبيعة وأستمرار لحالة الانتشاء الغامرة عند تناولَهُ الخمرة ولا يُنكر دور الخيال في رسم لوحة المكان الآمن المألوف المستحب لدى الشاعر، فالألفة حالة من التجاوب النفسي بين الشاعر والطبيعة التي تتمثل بالمكان المرتبط بالأحداث والاحوال المؤثرة في صلب الشاعر وعُمقهِ وهذهِ العلاقة المُنسجمة مع ذات الشاعر تُساعدهِ على التخفيف من وطأة القلق والضيق الناجم عن هذهِ الأحداث والمواقف المؤلمة المؤثرة سلبًا على نفسيتهِ، فهي عملية تطهير للنفس، وفي نفس الوقت تجسيد لطاقات الشاعر وأبداعِهِ.

وخلاصة القول: إنَّ "الطبيعة روح مرئية والروح طبيعة حفيّة، والأولى تُكمل الثانية. فالذات ترى نفسها في الطبيعة. كما تدرك الطبيعة نفسها في الروح"[2]. وتُظهر لنا الأبيات آنفة الذكر سمة الشاعر الوصّاف، السائر على طريقة الشعراء السالفين ممن سُحروا بجمال الطبيعة وهباتها وموجوداتها من حيوان ونبات وجماد، وتُظهر فضًلا عن ذلك خلع الصفات الإنسانية على الحيوان والنبات؛ فالقماري والبلابل خدم في إمْرة الشاعر وأصحابه والغصون المتكائفة حُجُبْ مُلتفَّة تُقيهِم عيون الناس، ونظير هذا الأسلوب متكرر لدى الشاعر مثلما هو وارد بكُثرة لدى شعراء الطبيعة. وفي إطار الدلالة السابقة قال الشاعر واصفًا الرياض ونضارتها وروضةٍ راضها الندى فغدت لها من الدهر أَنجمٌ زُهرُ نحو ما نجد في قوله:

---

(1) الديوان، ص114.

(*) القماري: مفرد القمري، وهو طائر يشبه الحمام، لسان العرب: (مادة قمر).

(2) نصيف أحمد أمين، زكي نجيب محمود (1936م): قِصَّة الفلسفة الحديثة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ج2، ص350.

تنشــرُ فيـها يـــدُ الربيع لنـــا ثرباً مـــن الوشـــيَّ ماكـــهُ القطـــرُ

كأنَّمـــا إنشقَّ مـــن شقـائِقهـــا علـــى رُبـــاها مطـــارفٌ(*) خُضُـــرُ [1]

إذ يصور الشاعر روضة من رياض مدينتهِ بعد إنَّ غطتها قطرت الندى فأصبحت كالنجوم المزهرة، فهي شبيهة الورد في نضجهِ وعنفوانِهِ وتفتحِهِ، ولا يترك الشاعر المشهد على هذا الحال إلاقرنَهُ بروعة النجوم في لمعانها وبريقها في الليل، ثم ينعطف نحوِ الربيع سيد الفصول في زهورِهِ وبهجتِهِ ولا غرو أن حِظِيَّ بمساحة وافرة من الشعر المنظوم في الوصف [2]. وعبَّر الشاعر عن فضلهِ بقولهِ في البيت الثاني، وكأن فصل الربيع وهو مشهورٌ لَهُ بالجمال وازدهار وتفتح الأزهار نشر ثوبًا على هذهِ الروضة مزركشاً من مختلف الوان الورد وأشكالها.

لا شكّ أنَّ مثل هذهِ الطبيعة الساحرة الموفورة الجمال قادرة على أنَّ تلفت إنتباه شاعر مثل الوأواء عاش حياتِهِ في اللهو باحثًا عن اللذات ومجالس الخمر وليس غريبًا أنَّ تستهوي مجالات هذهِ الطبيعة الخلابة الشاعر فيمزج هنا بين الخمر ومجال الطبيعة فقال:

قُـــم فإسقني بالكـأسِ لا بـــالقَنقَـلِ(*) واشـــرب على وجـه الـزمـان المقبـــل

كَسَـت السمـــاء زُهـــرَ نجومـهـــا بـــالـــزهـــرِ فأختـــالـــت بكـــمٍ مُسبـــلِ

صياغَ الغِمامُ لهـا عيـــونَ جواهِـــر وأجـــاد جلوتها لعيـــن المُجتـــلـــي [3]

وجَرَّيًا على عادة الشعراء الوصّافين يمعُن الشاعر في تصوير جمال الليل، إذ يرسم حدود هذا الجمال مُشبهاً النجوم في الليل بقلائد من جُمان متناثرة هنا وهناك في فضاء الرياض ناسياً لها الصفات الحسيّة فقد صنع لها عيون تُبصر بها وتجلي الناظر لها بالأَمطار....

عند إمعان النظر يجد القارئ لشعر الوأواء أَنّهُ قد خَصَّ الطبيعة في حالتها الصامتة والمتحركة بشعر ليس قليل بها، فيها من الزهور والورود وألوانها الزاهيّة ولاسيما البنفسج، إذ شبّهَهُ بالعيون، وتغنّى بالأغصان والأوراق، فكل هذا الجمال وما فيهِ من الوان زاهية وجميلة وأغصان رقيقة تترنح

---

[1] الديوان، ص101.

[*] المَطارِف: مفردها المُطرَف، والمُطرَف، وهي أردية من خَزٍّ مربَّعة لها أَعلام، لسان العرب (مادة طرف).

[2] ناظم رشيد، مرجع سابق، ص217.

[*] القُنقُل: المكيال الضخم، لسان العرب، (مادة قنقل).

[3] الديوان، ص175.

يمينًا وشمالاً أسقطها على جمال المرأَة وعيونها وخدودها وقوامها[1]، على شاكلة ما صَنعَهُ الشعراء سابقًا.

ونلحظ أنَّ الطبيعة التي وصفها الشاعر بجمالها ورقتِّها تشكل مكانًا مألوفًا في نفس الشاعِر، فيوضح لنا مَدى أرتِياح الشاعر واسترخائِهِ، مما أعطاهُ الحُرِّية الكافيّة للتعبير عَمَّا يجول في خاطرِهِ أو في داخلِهِ. فمزج بين جمال الطبيعة وجمال المرأة لما بينها من صفات الحُسُن والجمال فأسقط هذا الجمال على المرأة وتفنَّن في الوصف عندما شبه البنفسج بالنار في أَبعادها وما قالهُ الوأواء في وصف الطبيعة:

لمـــا تأملتُ الريـاضَ وزهرُهـــا ... يجـلـــو محـاسنـهُ علـــى قُصاتّهـا

شاهـــدتُ فيـهِ بدائعـاً وغـرائبـاً ... فيهـــا لأوصـــافـــي أَتـــمُّ مُرادِهـا

وبدا البنفسجُ لـي فقلت لخاطـري ... فـــي وصفـه كالنـــار ايقـــادِهـــا[2]

حلَـتِ الثَّلَـوُلَ نَجـدِّهَـا أوراقُـــهُ ... وحكى لدى التَّشبيهَ صِبـغَ جِدادِهـــا[3]

في الأبيات الآنفَة يتمَلّكَهُ الإعجاب عِند تَأَمُل الرّياض بألوانها وجمال الورد وتفتحهِ، كأنَّما الرياض تعرض هذا الجمال أو تلقيه أو تسقطهُ على قصّادها أو المارين بها، وشبّه الأوراق الداكنة الخضرة القاتمة بالحزن الواضح على وجه الكثُول وبضعُ الحداد، أي اللون الاسود كتعبير عن عتمة الأوراق ولونها المائل للسواد من شدة خضرتِها وهذا الوصف أشار الية القرآن الكريم. ﴿مُدْهآمتان﴾[الرحمن: 64] ومعناها شديدة الخُضرة، وذات رونق وبَريق تكاد تكون مُعتَمَة من شدة خضرتها ومن كثرة رِيَّها وهذا الوصف كلهُ عبرَّ عنهُ الشاعر ليصف لنا مجال الطبيعة وأُلفيتها، وكونها مكانًا بديعاً ترتاح لَهُ النفوس وتتجلي فيها الهموم والأحزان وكأنَّ الوان الورد والاشجار والبلابِل تسحب كل ما في الشاعر من توتر وقلق وعدم إرتياح وتغمرهُ بالإيجابيّة الفعّالَة لِيستثمر فيها خيالَهُ ومشاعِرَهُ وتفتح آفاق ذِهنِهِ للخيال والوصف والتعبير.

ومن الامارات البينة على ميل الشاعر إلى الفضاء الطبيعي والاندماج التام في أجوائِهِ، التنويع في رسم الطبيعة وتقصي حدود مجالِها وسحرها وعدم الاكتفاء بهذا الوصف بل أضاف على هذا

---

[1] عصام لُطفي صباح (2016م): الصورة الفنية في شعر الوأواء الدمشقي، ط1، عمان، دار زهدي للنشر والتوزيع، ص51.

[2] الديوان، ص90.

[3] الديوان، ص90.

السحر والجمال مسحة من خيال أوسع فألبَس الطبيعة ثوبًا منقوشًا بكل أنواع الزخارف والحلي، فقال واصفاً قوس قزح:

سيقاً ليوم بـدا قوسُ الغَمامة بـــهِ والشمسُ مسفـــــرةٌ والبرقُ خـــــلاسُ

كـــــأنهُ قوسٌ رامَ والبـروقُ لـــــــهُ رشْقُ السَّهام وعيْنُ الشَمسُ بُرجاس(**)(1)

من الواضح أنَّ هذهِ الأبيات دليل الإخلاص لمظاهر الطبيعة التي أحبها ولاذَ بها من الواقع وقسوَتِهِ ولا شكّ إنّ لمقدرته الفنية يدًا تجلَّت قدرتها في الاستعارات والتشبيهات الرائعة، ففطرت الشاعر واستعدادِهِ ساعد في خلق شاعريتهِ، لأنَّ البيئة وحدها لا تخلق في الشخصية ابداعً معيناً ولكنها تنمي ما هو موجود فعلاً[2].

ثانياً: الأديرة والحانات:-

تُعرف الديارات بأنَّها بيت للعبادة وعموماً تكون في الصحاري ورؤوس الجبال أو في أماكن مرور المسافرين، وبالأصل كانت كنيسة أو بيعة، ومن المُحتمل أنَّهم فرقوا بينها فصارت الكنيسة لليهود والبيعة للنصارى.

لذا فإنّ الديارات مجمع دير وهو سكن الرهبان وأماكن عبادتهم[3]. أما أدب الديارات فقد نشأ في القرن الثالث والرابع الهجري ضمن الأدب الجغرافي العربي، وكان هذا التوسع في الحانات ومعرفتها عن كثب تابع لتوسع الفتوحات العربية الإسلامية في الامصار والدول العربية والرحلات إلى تلك الدول والاختلاط بالأجناس والاقوام والبُلدان

التي انضمت إلى الإسلام وهذهِ الأديرة لم تَستَهوِ الشعراء بوصفها أماكن للعبادة، ولكن بسبب نبيذُها الذي أحبَهُ الشُعراء. وكانوا يرغبون في شرابهِ ويتبادلون الحديث الجميل وإنشاء الشعر والآراء المتبادلة.

(*) يشار نسبة إلى ابيقورس، فيلسوف إغريقي من العصر الهيليني (341 – 270ق.م) كان يرى (أنَّ لذات النفس أعظم من لذات الجسم، إذ بينما لذة الجسم محصورة في الوقت الحاضر، تكون لذة النفس أوسع مدى لأنَّها زيادة على الحاضر تتمتع بذكرى اللذات الماضية وبانتظار اللذات الآتية).

(1) الديوان، ص131.

(**) برجاس: هدف ينصب على رمح أو سارية، القاموس المحيط (مادة برج).

(2) مصطفى سويف (د.ت): الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصةً، ط4، القاهرة، دار المعارف للنشر: 316.

(3) شهاب الدين إبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي(1956م): معجم البلدان بيروت، دار صادر، ج2، ص495.

وبُنيت هذهِ الأماكن أوالأديرة المُعبّرة عن الألفة والمحبّة بين روّادِها في أماكن ذات مواصفات خاصة كأن تكون قريبة من ضفاف الأنهار أو محاطة بالمياه والبساتين والمزارع[1].

وشعر الديارات فضَلا عن كونهِ شعرًا عباسيًا بشكل عام لكنهُ متعلق بالحياة الخاصة للناس والشعراء، وأضاف جميلًا ومعروفًا على الأدب واللغة والشعر.

وكانت مكانًا يومي بالراحة والارتياح لأعلام الأدب والشعر الذين كانوا يترددونَ عليها من أجل الهدوء والصفاء ولغرض الشُرب، ولا يخلو وجود روّادها مِن تبادل الكلام الجميل والأخلاق الرفيعة والنوادر والحكايات.

ولم يُعْنَ المؤرخون والكتاب القدامى بوصف الديارات من الداخل سوى إنَّها تتكون من الكنيسة والهياكل المشتملة على بيوت المائدة والمخادع ودور الضيافة، فضَلا عن الحدائق والحانات. وأبنية الديارات تختلف تبعاً لعادات الناس وتقاليد البلاد، وكان القيمون على الديارات يعملون على تحصينها بالأَسوار الشاهقة والأبواب الحديدية خوفًا من اللصوص وكانت بعض القباب بأشكالها الرائعة تعلو بعض الديارات وتلفت الأنظار من مسافات بعيدة[2]

لاريب إنَّ هذهِ الأماكن من قبيل الحانات والأديرة كانت مقصد الطالبين للمتعة واللهو والاستمتاع بالغرف والأغاني والرقص وسائر المتع...

ومن أمثلة هذهِ الأديرة (الدير حسن عامر: لا يخلو من متنزه فيهِ ومطرب عليهِ) ومثلهُ دير زرارة الذي كان في موضع نزهُ حَسِن كثيرٌ الحانات والشراب.

وكلِ ما طُرح عن الحانات من تهتك ومجون يُصدِقُ على غيرها. وانتشرت الحانات في بغداد والشام ومثلها في مصر وكان روَاد هذهِ الأماكن والحانات يتباهون بما لديهم من ملابس وزينة ويفتخرون بما يعدُّونهُ لقصفهم ويقول الشابشتي "إنَّ الروّاد كانوا يتنافسون فيما يظهرونهُ هنالكَ من زَيّهم"[3]. ويُعمّرونَ شَطّهُ وأكنافهُ وديرهُ وحاناتَهُ ويَضرب لذوي البسطة منهم الخيّم والفساطيط[4].

كان تاريخ إنشاء الأديرة والحانات يعود إلى العصر الجاهلي وامتد إلى عصر صدر الإسلام، ولكنها نشطت غي العصر الأُموي وبلغت ذروتها وازدهارها في العصر العباسي وانتشرت في بغداد والكوفة والبصرة والعراق وكان أَكثرها عددًا في الكوفة لقُربها في الحيرة العريقة بالحانات مِنذُ العصر

---

[1] مصطفى الشكِعَة (1986م): الشعر والشعراء في العصر العباسي، ط 6، بيروت، دار العلم للملايين، ص187.
[2] أبي الفرج الأصبيهاني (1991م): الديارات، ط1، منتدى سور الازبكية، ص17.
[3] يوسف حسين بكار (1981م): إتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري، القاهرة، دار المعارف للنشر، ص252.
[4] المصدر السابق، ص252.

الجاهلي، وبسبب كُثرتها شَكّلت خَطَراً أخلاقياً على المجتمع وأبعدَتهُ عن نهج الدين الإسلامي ومبَادئِهِ بحيث أنَّ هذهِ الكثرة وما شاعَ عن وجودها من إنحلال وإنحراف قادَ إلى مؤلفاً مثل ابي الفرج الاصفهاني وقد تخصص في الضرب من الموضوعات بأنَّ يؤلف كتابين يرتبطانِ بهذهِ الحياة الغريبة هما (كتاب الخَمارين) و(كتاب الحانات) وكان للخّمارين أسماء مشهورة وشخصيات أيضاً ورغم سوء ما أُشتهرت بهِ ولكن كانت مرموقة؛ وذلك لأنَّ كانَ المؤلفون الذاكرون يصفونها ويكتبونَ عنها، ولم تكن الخمارات والحانات أمكنة لبيع الخَمر وحسب. ولكنها كانت "مكانًا يقدم أسباب اللهو والمجون والإثم"[1].

ترددت أصداء هذهِ المجالس وأنواع شرابها والقائمين عليها في طائفة واسعة من الاشعار ودلت على المكانة المرموقة لهذهِ الأمكنة وقد ذكرنا آنفًا دور الطبيعة في تهيئة المكان الخاص بالحانات والشرب ومالهُ من مزايا ومواصفات قد تتشابه أو تتباين، فضَلا عمّا للفن والشعر خاصة من مزية تجعله قادرًا على إضافة لمسة من الجمال بما يتناولَهُ الشعراء من رؤى وخيال[2]. في الوصف وإسقاط ما لديهم من تعبير وخيال عليه مما لاشك فيه إنَّ الأجواء المتصلة باحتساء الخمر مرتبطة إرتباطًا متينًا بالمكان وألفتِهِ، فألفه المكان إنبثقت من عدد الروّاد ٱلذّين يترددونَ عليهِ، ومن شعور الشاعر وإحساسِهِ بالارتياح النفسي لَهُ، وبما يسحبهُ ذلك المكان من مشاعر الحُزن والطاقة السلبية في نفس الشاعر حين وجودَهُ فيهِ، وانقاذِهِ لَهُ من حالة التوتر والضغط النفسي غير أنَّ هذا النوع من الفن والشعر ومجالسِهِ لم يكن شيئاً جديداً في بيئة معينة من دون آخرى ولا يقتصر على زمن دون آخر، لقد عَرِفهُ الناس والشعراء منذُ العصر الجاهلي والعصر الراشدي، غير إنَّ نهج الدين الإسلامي الحنيف ساعد على تقلص مساحته، لكن سرعان ما إبتدَأ يلمع نجمه في العصر الأموي، وما إنَّ أطَلَّ العصر العباسي حتى أخذ الفن الشعري الخمري، مساحة واسعة في مجال الفن والشعر إذ جعل منهُ أبو نواس فناً قائماً بنفسِهِ وقادت حالة الاختلاط التي اتَّسمَت بها طبيعة الحياة في المجتمع العباسي وحالة الاستقرار والترف التي أنعم بها المجتمع إلى انتشار هذا الفن وظهور الأدب والشعر الذي إختصَّ بوصف الديارات ومجالس الخَمرِ[3].

وأَصبحت الحانات ومجالس الخَمرِ والطرب حالة إجتماعية طبيعية في المجتمع على الرغم من سلبياتها وينمُّ عنها من توابع الإثم والفساد.

---

[1] مصطفى الشكِعَة، مصدر سابق، ص190.

[2] المصدر السابق، ص92.

[3] شيماء نجم عبد الله (د.ت): الخمريات في شعر الوأواء الدمشقي، مجلة كلية التربية الأساسية، جامعة بغداد، مج (20)، ع (83)، ص78.

فيما تقدم صورة مجسَّدة لأبرز ملامح المكان الأليف وفضائيهِ الجاذب للشعراء وليس غريبًا على شاعر مثل الوأواء عاش حياتِهِ وشبابِهِ لاهيًا عابثاً أنَّ يندمج مع من عاصرهُ من الشعراء إلى هذا الفضاء ويتطرق إلى هذا الفن ويُعني بوصفهِ الخَمر ومجالِسِهِ وصفاً بارعًا إذ أبدعِ فيهِ عارضًا جمالية الشكل والمضمون وصدق التعبير، فكان شعرهِ حافلاً بجوانب ابداعهِ "بما يتضمنهُ من إنفعالات وأحاسيس جمالية وعاطفية أخاذَة"[1].

وتكشف الصورة الجميلة الذي ينقل بها الواقع المرئي إلى فضاء الأبداع الشعري. ولوصف الخمرة مع بدء الليل شيء من الجمال؛ إذ يصف سواد الليل ونجومِهِ واجتماع الندماء وبروز الكؤوس والعزف والفناء فتبدو مُرتبطة ارتباطًا جميًلا إلى جانب السماء ونجومها ومادّيّة الاشياء وفي ذلك يقول:

رُبَّ ليـــلٍ أطـــلـــعـــت فيـــ ـــــهِ يـــــدورٌ مـــــن جيـــوب
يَتَنـاهَيـــــنَ شمـــوسَ الـــــراَّ ح فـــــي كـــــأسٍ وكـــــوبِ
حَـــضـــرتْ فيـــهِ اللّـــــذاذا تُ بـــقـــقـــدانِ الـــرقـــيـــب [2].

ويجعل الوأواء نفسه خارقًا في فضاء الملذات مع التأكيد على مبدأْ الخلوة فضًلا عن وصف مجالسِ لِشرب الخمر وما فيهِ من مشاهد كمشهَد الجواري وحركاتُهنَّ وكيفية سَقي الخمرة وتقديمها لطالبيها فاستعار للخمرة "شموس الراح كي يعرض لوناً من التضاد اللوني"[3].

وعلى ما يبدو إن أجواء احتساء الخمرة ترتبط بمكان لشربها ومعاقرتها ويتجلى تفاعل المكان مع الخمر في أمكنة خاصة لها مثل الحانة أو الحدائق والأديرة والندمان، ولهذا ليس هناك أبياتاً اختصت بوصف الخمر تخلو من وصف مكان شربهِ المتمثلة بالحانة أو الطبيعة، وعبر استقراءنا لديوان الشاعر نجد إن اغلب مجالس الخمرة لديه هي الطبيعة واجوائها؛ إذ اكثر من وصفها مع الخمر بصورة بديعة، عاش أجوائها في تلك الرياض بطبيعتها الضاحكة والباعثة على الراحة والمرح في نفسية الشاعر. ويعكس الشاعر لنا صورة الخمر واصفاً فيها حانة إذا ما قدمت فيها الخمر على يد سقاتها تفوح رائحتها وطيبها على شاربيها فقال:

يطوفُ براحٍ ريحـــهـــا ومـــــذاقهـــــا نسيم الصَبـا والعَيشَ في زمـــن الصِّبـا[4]

---

[1] المصدر السابق: ص85.

[2] الديوان، ص42.

[3] شيماء نجم عبد الله، مصدر سابق، ص90.

[4] الديوان، ص261.

وهذا الوصف يُعطي انطباعاً للقارئ على ولع الشاعر بها، إذ اعطاها صورة ذوقية وشمّية يرتاح إليها وتأخذ شاربها إلى زمن صيباه وشبابه وحين يُطاف بها على الجالسين كأنها نسيم الصباح المنعش الطيب.

وتبلغ دعوته إلى الانغماس في أجواء اللهو أَشدها وتُطالعنا صورة الشاعر الشاب داعياً إلى اللّذات والشهوات ويستمتع بصوت الناي والعزف والغناء إذ قال:

يـــاشيـــعـــةَ اللَّهـــوِ هبُّـــوا إلـــــى اللَّـــــذاتِ هـــبُّـــوا

فـــالنَّـــايُ يُبـــدي أنـــيـــنـــاً يـُـشجـــي وللـعُـــودِ ضَـــــرْبُ

ومـــاعـــلـيـــنـــا جـــنـــاحٌ فيمـــا فـــعـــلـنـــا وعَـــتَـــبُ [1].

لقد استعان الشاعر بوسائل الطرب والاستمتاع في مجالس يشرب الخمرة وبالغ في وصفها والارتياح لمجالسها داعيًا أصحابهُ ورواد هذهِ الحانات إلى الطرب والشرب والعود والناي من غير تحفظ. إذ يقول لا جناح أو لا ذنب علينا فيما فعلنا مبتعداً فيها عن كل ما يمت بصلة إلى الدين.

وهذا دليل على تآلف هذهِ الطبيعة الزاخرة بالمرح واللهو والسهر وما شابة مع نفسية الشاعر وارتياحِهِ لمكانها ولجلاّسَها أو روادّها. فالوأواء متحررًا في شعرهِ يُقلد من سبقهُ من أصحاب المدارس النؤاسية[2]. لقد استهوى الوأواء مجالس الخمر والحانات وعشق أجوائها لما فيها من وسائل الإرتياح النفسي، فَعاش مَلذاتُها وصُخبها فقال واصفاً الخمرة:

نـــــــاوَلَنِي مـــن كَفِّـــهِ قَهْوَةٌ تُضـــيءُ مـــن نـــارٍ ومِن نـــورِ

ضِيـــاؤُهـــا في الكأسِ ياقوتـــةٌ تَضحَـــكُ فـــي أحشاءِ بـــلـــورِ [3].

وهنا أشار الشاعر إلى الخمرة ووصفها بكونها صافية وممزوجة مُضيئة كأنها جوهرة من ياقوت وسمّاها بالقهوة وكلها إشارات إلى الحانات وأماكن ومجالس احتساء الخمرة أو تعصيها وهي أماكن أليفة بالنسبة للشاعر الوأواء. ولا يترك لَحْظة ولا يومًا من أيام حياتِهِ، إلاّ وكان لَهُ وصفاً أكثر روعة من سابقهِ بالخمر ومدى عشقِهِ وإرتياحهِ ومُتعتِهِ بها وكأن الحانات ومجالس الخمر هي الحياة بالنسبة لَهُ فقال:

---

[1] الديوان، ص49.

[2] محمد زغلول سلام (1999م): الأدب في عصر العباسيين، ط1، القاهرة، مركز الدلتا، ص613.

[3] الديوان، ص111.

سَـــقـيـــاً لأيّـــامِ الـمُـــــدامِ لَـــــهُ ســاعَــدَتــا بــالــــدَّوامِ
أيـــــامُ أيّـــامـــــــي بِـــهـــــا مثـــلُ الكـــواكِـــبِ فـــي الظَّـلامِ[1].

وهنا يتمنى الشاعر أَنَّ تستمر ساعات شُرب الخَمرِ طوال اليوم ويتمنى أنَّ يساعدَهُ أحداً على الاستمرار والمداومَة على حُظور هذهِ الحانات ومجالس الخمر. ويحسب أيام حياتِهِ فقط هي عندما يكون حاضراً في هذهِ الأماكن ومتمتعاً بأجوائها وما يدلُّ على ذلك هو وصفهِ هذهِ الأيام كالكواكب التي تنوِر أيام حياتِهِ المُظلمة كما تنور هذهِ الكواكب السماء في ظُلمة الليل، وهذا دليل آخر على ألفة المكان بالنسبة للشاعر وارتياحِهِ وحُبَّهِ لَهُ وباعتبارِهِ مُتنفساً للتخلص من أوزار الحياة وعبئها. إذ تبدأ ألفة المكان لدى الشاعر في الغالب مع أجواء الفضاء الذي ترتاح إليهِ النفس ويجد الشاعر فيهِ متسعاً ليسقط عليهِ آهاتَهُ أو ربَّما إرتياحِهِ وأنسِهِ بالمكان ونجد من قبيل ذلك وصفه لحانة والسقاة فيها ما يَسر الناظر، فقال:

ســاقٍ حكى البـــــدرَ والغُصْنَ لي فـــــذا بالتـمـــامِ وذا بـــالقَـــوامِ
سقـــانـــي بـكـأسين فـي مجلـسٍ بكأسِ الـمُـدامِ وكـــأس الـــغـــرامِ[2].

ويُظهر النص إشارة واضحة لساقي الخمر واوصافِهِ الحسيّة، فالشاعر لا يترك مشهد من هذهِ المشاهد التي يراها في حانات الخمر ومجالسِهِ، إلاَّ وتغنى بها وصورها في ديباجاة مختلفة تتجدد كل يوم لتقود إلى الإحساس والتغني والغزل بها فضَلا عن أثرها في النفس والمشاعر من نشوة الطرب والارتياح، ففي العصر الحمداني نظم الشعراء في كل ما هو جميل وجديد[3] والشاعر الوأواء واحدًا منهم أيضًا، ولكنهُ نظم مقلَّدًا من سَبقهُ من الشعراء، فوصف الطبيعة الجميلة وأضفى عليها من خيالِهِ واسلوبِهِ في وصف رياضها وحاناتها وكل ما هو جميل فيها.

ثالثًا: ألفة الرحلة:

الرحلة مُيسرةٌ وكلُ ميسرةٍ لها أبعادٌ تحدُّها، منها زماني وآخر مكاني ولها مقصد وغاية ويُشكل مجموعها الفضاء المساوي للعناصر جميعها وفي طليعتها الشاعر...!

وتقع الرحلة في الشعر العربي في دائرة الأدب المصور للمظاهر الاجتماعية والتأريخية في رحلتِهِ إلى البلاد إذ يَعرِض الشاعر ما تَعَرَّضَ لَهُ من مَشَقَة ومعاناة في الشعر أو يصف مُتعتهِ

[1] المصدر السابق، ص213.
[2] المصدر السابق، ص207.
[3] مصطفى الشكعة (1958م): فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين، القاهرة، مطبعة المعرفة للنشر، عالم الكتب، ص341.

بالرحلة، وما صادفهُ فيها من مظاهر إجتماعية وما شاهدَهَ من مناظر جميلة، وتُعدُّ كتب الرحلات من المصادر الجغرافية والتأريخية، لما نُقل عنها من مظاهر الحياة والبلاد التي زارها الرحّال ؛ لانَّ الرحّال يأخذ ما يُريد معرفتِهِ من المعلومات لتلك البلاد بشكل مباشر غير منقول[1]. لقد توسع العاملون في البحث عن أُصول الرحلة ومقوَّماتها وتباين آراء الشعراء فيها وكذلك تنوعها، وما يُميز الرّحلة هو الانتقال من مكان إلى آخر ضمن زمن مُعين.

إذن نحنُ نُعبرّ عن إنتقال الإنسان وحركتِهِ من ناحية لغوية وبصيغة أدبيّة بالرّحلة وفيها نستطيع أنَّ نقول إنَّ الإنسان لا يتحرك أو ينتقل لُمجرد الحركة والانتقال، وإنّما يَنتقِل بجسمهِ وذهنِهِ وما يتعلق في الذهن من تركيز وإدراك لربط العناصر المُتباينة للمظاهر ٱلتي يشاهدها ويستشعِرها في هذهِ المرحلة عبر ثلاثة عناصر هي المكان والزمان وخيال الرحّال وانتقالِهِ انتقالًا حقيقيًا أو عن طريق الخيال. متضمناً تأثير الوجدان والمشاعر في نفسية الإنسان الشاعر[2].

والهدف من الرّحلة ليس فقط التجوال والتعرف على أحوال البلاد وطبيعة العلاقات الاجتماعية بينهم والاستمتاع بطبيعة مجال بلادهم بل يمتد إلى أهداف آخرى أكثر أهمية مثل زيارة الشيوخ والكبار والعلماء ولأجل التزود بالعلم والمعرفة ومن المحتمل أنَّ تكون لها أهداف دينية كرحلة الحج[3]. ومن الأهداف الأخرى للرّحلة قد تكون رسميّة وتتجلى هذهِ الرّحلة بوضوح في زمن الفتوحات الإسلامية للبلدان التي تمَّ فتحها من قبل المسلمين والغرض منها جمع المعلومات والأخبار عن هذهِ البلدان من أجل تقدير ثرواتها وما يترتب عليها من ضرائب وقيود وتقديم التقارير.

والغرض الآخر من الرحلة هو التجارة التي تضطرُ من يعمل بها إلى الترحال والسفر إلى البلدان المجاورة أو البعيدة للاقتناء ولشراء ما لم يكنْ موجود في بَلدِهِ، والرحلة من هذا النوع تبدو أليفة ولها علاقة بأُلفَة المكان للرّحال وللشاعرِ حيثُ أَنَّ الشعراء كانوا ينتقلون من بلدة إلى آخرى طلبًا لنيل العطايا والارزاق خصوصًا في العصر العباسي الذهبي حيث أنَّ هذا الهدف من الرّحلات قد بلغَ شأنًا لم تبلغْهُ "أي أمة قبل عصر الاكتشافات الجغرافية الاوروبية الحديثة"[4].

أما في الشعر والأدب تأْخذ الرّحلة إتجاهاً آخَر لَهُ عَلاقة بإنتقال الشاعر إلى مكان آخر مبتعدًا عن أهلهِ وخلانِهِ لأسباب كثيرة تجبرهُ على ذلك أو ابتعاد الحبيبة عنهُ تاركاً هذا أثراً نفسياً وأغترابًا لدى الشاعر ناجم عن بعدها وفراقها، وأحيانًا إنتقال الشاعر أو سفرِهِ من أجل نيل الشهرة والمال وهذا

---

[1] محمد مروان (يونيو 2017م): أدب الرحلة.

[2] ماجد حميد فرج (1999م): الرحلة في أدب أبي العلاء المعري، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة المستنصرية، ص4.

[3] حسين محمد فهيم (1990م): أدب الرحلات، تح: أحمد مشاري القدواني، مصدر السلسة في يناير، ص80.

[4] المصدر السابق، ص81.

العرض واردًا ومتماشيًا مع جميع العصور مُنذ العصر الجاهلي وحتى العصر الأموي والعباسي، الذي أزدهر فيهِ العلم والشعر والمعرفة وتنوعت الثقافات فسارع الشعراء في تلك الحقبة الزمنية ولاسيما العصرالعباسي منها إلى مدح الخلفاء وكبار رجال الدولة والبلاط لنيل المكارم[1]. منهُ والوأواء شاعِرٌ لا يقل أَهمية عمن سبقهُ وعاصرهُ من الشعراء في هذا المطلب ولعل أول ما اشتهر بهِ وذاع اسمهُ في الساحة الشعرية هو مدحَهِ للعقيقي ومدحِهِ سيف الدولة وأهم ما يُميز مدحِهِ لسيف الدولة رحلتهِ إلى حلب التي جاءت بعد زيارة سيف الدولة إلى دمشق لأسباب تخص عملهِ فيها فلما سمع بهِ الوأواء أسرع إليهِ ووقف أمامَهُ مُنشدًا بعض الأبيات أمتدح فيها شجاعتِهِ وكرمِهِ، ثم انشدهُ قصيدة ثانية لمح فيها برغبتِهِ في العيش في بلاط سيف الدولة في حلب، فلبّى سيف الدولة طلبهُ[2]. فقال واصفاً هذهِ الرّحلة:

ها قــد تبدلتُ اوطانــاً بأوطانـــي عَمْــداً وفــارقهُ خلانـــاً بـــخـــلانِ

فإني بــاذِلٌ بالصــبــر عنــد فتــىً تقبيــل وَجنَتِـــهِ والــرُكــن سِيـــانِ[3]

ففي هذهِ الأبيات يصف الشاعر لرّحلتِهِ إلى حلب، وكأنّهُ مضطرًا إليها لسبب مادي ولهذا يصف لنا فراقِهِ لأحبتهِ وأصدقائِهِ وخلانِهِ واستبدلهم بآخرين في المكان الجديد، وعلى الرُغم من إبتعادِهِ عن دمشق التي نشأ فيها وأحبها وكان لِهُ وجودًا فيها، معبرًا من خلال هذهِ الأبيات عن ألمِهِ لفراق الأصدقاء والاهل، إلا إنَّ هذهِ الرّحلة قد حَقَقَت للشاعر مكاسب كثيرة مادية ونفسية واشعرته بسعادة العيش والهناء لما لاقاه من ترف ونعيم في بلاط الأمير الحمداني، وهذا دليل واضح على ألفة المكان وانعِكاسِهِ الإيجابي على الشاعر من ارتقاء ووجاهة ومحاسن مَعيشيّة جيدة، حتى تغير حاله من البؤس إلى الغنى وأَصبح في "بحبوحة من العَيش"[4]. وفي حلب مدح سيف الدولة بقصائد أشهرها قصيدتهِ التي قال فيها:

مــا أرطبَ العيشَ فــي ذراكَ ومــا أَهْنَــا النّــدى فــي جنابكَ اللَّيْـنِ

عَلــوتَ في المجــدِ كــل مكُرمــةٍ كُنْتَ بهــا ثــالِــثَ الـسَّمــاكَيْـنِ[*] [5]

من قــاسَ جَــدْوَاكَ بالغمــامِ فمــا أنصَفَ الحُــكــمِ بيــنَ شَكــلَــيــنِ

---

[1] سامي الدهان (1919م): المديح، ط5، القاهرة، دار المعارف للنشر، ص24.

[2] علي يوسف القفطي (1970م): المحمدون من الشعراء، تح: حسن معمري، جامعة باريس، ص14.

[3] الديوان، ص231.

[4] عصام لُطفي صباح، مصدر سابق، ص8.

[5] الديوان، ص222.

[*] السّماكين: نجمان نيران في السماء، لسان العرب(مادة سمك).

أَنـــت اذا جُـــدَتَ خيامِـــكَ ابـــداً هـــو إذا جـــادَ دامِـــعُ العيـــنِ
والـــشمسَ ممـــا بَـــرَزْتَ، بـــارزةً والاسَـــدَ البـــاسِـــطَ الذَراعَيـــنْ
زيـــنَ بِـــكَ الشَّعْرُ فَهُـــوَ يَرْفُلُ مِـنْ مَدْحِـــكَ فـــي حُلَّتيـــن مِـن زَيـــنِ
زاد جَمـــالُ القريضُ يابْنَ أَبـــي الهَيْ جَـــاءِ لَمـــاً أتـــاكَ ضِعـــفَيـــنِ

لم يخرج الشاعر عن النهج الذي خطّهُ الشعراء الذينَ سبقوه في مدحهم لسيف الدولة الحمداني، ففيها مدح وثناء واحترام خالي من الإبتذال وبهذهِ القصيدة أصبح من مُدّاح سيف الدولة، بل وعلى رأس من كان معهُ من الشعراء الكبار في ذلك الوقت، خصوصًا وإنَّ سيف الدولة كان شديد الطموح، ويجب أنَّ يجتمع ببابهِ الُشعراء فلا عجب أن يسعى الوأواء، كما سعى غيرهُ من شعراء العصر إلى بلاط سيف الدولة وحققوا بمدحهم لَهُ مطالبهم وغاياتهم. أو بالأَحرى هون من حقق لهم مطالبهم إذ "ذكَر المؤرخون إنَّهُ إجتمع لسيف الدولة ما لم يجتمع لغيرهِ من الملوك فكان خطيبةُ أبن نباته ومعلمهُ أبن خالويه[**]، ومطربهُ الفارابي"[1].

وللشاعر الوأواء رِحّلة بِصَفها في مِصْر ولاسيما في النيل وهذهِ الرحلة قد تكون حقيقية أوخيالية لأننا لا مجد لها خبرًا أو دليًلا في ديوانهِ، وإنما وَجَدتُها في ذيل الديوان. فقال:

مـــا تـــرى النيـــلَ عليـــهِ حَـــيـــكـــاً مِثـــل ٱلـــدَّروعِ
أنـــمَّـــا زادَ لِأنـــي فيـــهِ أجـــريـــتُ ٱلدُمـــوعِ[2]

وهنا إشارة من قِبل ٱلشاعر إلى هدوءُ ٱلنيل وإعتدال مِياهِهِ ولا يوجد ما يُزيد العِبئ على ٱلنيل إلاَّ دِموع الشاعر عندما جُزَت فيه يوم وداعِهِ. لارَيْب إنَّ رحلتِهِ إلى حَلَبْ أكثر أَهمية من غيرها لما تترتب عليها من فوائد ولا أريد أنَّ أَقول عواقب بل فوائد، لأنَّ الشاعر الوأواء حَقَقَ الفائدة منها، وما كان يَرغب فيهِ من مطالب ومُغريات ومكارم، فضًلا عن ذلك إرتباطها بأُلفة المكان وأَثرها في أحوال الشاعر ونفسيتهِ وما يُعانيه من بؤسٍ وعَوزْ، لهذا كان السَبب المادي والحاجة إلى المال هي التي ألَحَّت عليهِ للسفر إلى حلب من أجل الحضور في بلاط الأَمير، شأنهُ شانِ غيرهُ من الشعراء. كالمتنبي والبحرّي وأَبي تمام وغيرهم وجميع المتوافَدين إلى البِلاط، من طبّاخ وسَقّاء حيثُ بلغوا مرتبة عالية من الشعر. وانتشرت اشعارهم وقصائِدهم في أرجاء البلاد. ويرجع سبب كثرة الشعراء في بلاطهِ

[**] أبن خالوية: أبو عبد الله الحسين بن خالوية، أصلة من همذان، يُعد أَحد أَفراد الدهر في كل قسم من أَقسام الأدب والعلم ويعد كتاب (ليس) من أشهر مؤلفاتهِ، (270هـ)، أبن خلكان، وفيات الاعيان، ص244.

[1] الغزولي (1300هـ): مطالع البدور، ط2، مطبعة إدارة الوطن، ج1، ص176.

[2] الديوان، ص 274.

لأنَّهم كانوا من عامة الناس وكانت لديهم صِفات وسمِات هَيّأتهم للنظم بفضل مجالس العِلم التي كانوا يَنهَلونَ منها فوِجودهم في البلاط ساعدهم في ذلك، لأنَّ البلاط والدول التي حكَمها الحمدانيون ساعدتهم وهيئت لهم قاعدة للأنطلاق في النظم وكتابة الشعر، وأَنَّ كان عصر الرشيد في بغداد يسمى بـ (العصر الذهبي) فالحمدانيون في دمشق يُطلق على عصرهم بـ "الطراز المذهب"[1].

المكان المفتوح:

هو رديف المكان الأليف، ويتمثل المكان المفتوح بكونه يسمح للأشخاص بالتنقل الواسع بين أطرافهِ وأمكنتهِ، فمثلاً فضاءات المدن والشوارع تُتيح بالانتقال بين أطرافيها بحرية تامة دون قيد أو عقبة فضلاً عن شوارع المدن وساحاتها، فهناك أمكنة مفتوحة تشمل الطبيعة كالحقول والبساتين والحدائق العامة وما شابه، وعندما نعبر في حديثنا عن المدن وشوارعها وضواحيها، فهو تعبير عن أمكنة ثقافية مفتوحة، أما الأمكنة العامة التي يتجول فيها العامة من الناس هي ما أشرنا إليه آنفاً كالحدائق والبساتين والشوارع[2]، فعندما نتكلم عن الأماكن المفتوحة نجد أنها الأماكن ذات العلاقة بالتغيرات التي تحصل في المجتمع، والعلاقات الإنسانية والاجتماعية وابعاد تفاعلها مع المكان، فالأماكن المفتوحة هي عكس الأماكن المغلقة، وهي عبارة عن مساحات واسعة يجهل الانسان مداها وسعتها فهي توحي بالمجهول كالبحار والأنهار، واحياناً توحي بالسلبية كالمدينة وصُخبها وضجيجها وما ينجم عنها.

أو يعبر عنها بأنها مساحات وأماكن متوسطة كالحيّ الذي يوحي إلى المحبة والألفة والتعايش الإيجابي بين الناس، وأحياناً نعبر عن الأماكن المفتوحة التي تتمثل بمساحات صغيرة كالباخرة والسفينة بوصفها مكان صغير يسير فوق الأمواج" وفضاء هذه الأمكنة قد يكشف الصراع الدائم بين هذه الأمكنة كعناصر فنية، وبين الانسان الموجود فيها"[3].

وعليه فالمكان المكان المفتوح هو الذي " يتردد عليه الفرد من دون قيد أو شرط مع عدم الإخلال بالعرف الاجتماعي، أي ممارسة سلوك غير سوي يرفضه المجتمع كالسرقة والعدوانية، وهو عنصر أساس تتحرك عبرهُ الشخصيات الروائية، فضلاً عن كونه الزمن الذي يتعامل معهُ الكاتب"[4]، وتتميز هذه الأماكن المفتوحة بشدة انتماء الناس إليها فضلاً عن كونها هي الأخرى شديدة الانتماء

---

[1] مصدر سابق، ص25.

[2] محبوبة محمد آبادي (2011م): جماليات المكان في قصص سعيد حورانية (دراسات في الأدب العربي)، ط1، دمشق، منشورات الهيئة العامة السورية للكتّاب، وزارة الثقافة، ص44.

[3] مهدي عبيد (2011م): جماليات المكان في ثلاثية حنا مينة (دراسات في الأدب العربي)، ط1، دمشق، منشورات الهيئة العامة السورية للكتّاب، وزارة الثقافة، ص95.

[4] قصي جاسم الجبوري(2018م): تجليات المكان في الرواية (رواية تحسين كرمياني أنموذجاً)، ط1، دمشق، ص95.

إلى مجموعة كبيرة من الناس، وتتميز بكونها مفتوحة من جانب واحد، وهذا الجانب شرطاً أن يكون من الأعلى، وهذا الانفتاح يعطي للناس شعوراً بالارتياح على الرغم من مشاعر الحُزن التي تنتابهم نتيجة ما يتعرضون له من ظروف مفاجئة، وكما قلنا تدخل ضمن هذه الأماكن المفتوحة الأسواق والطرق والمدن والقرى والحدائق والصحاري وحتّى ساحات الحروب وهذا ما يؤدي إلى مجموعة علاقات تأخذ نَسَقاً ترفيهياً في جوانب متعددة، وعبر كلّ ما تقدم نقصد بالأماكن المفتوحة هي الأماكن المفتوحة على الخارج التي تتجلى فيها الحركة والانتقال والاتصال، وتكون هذه الأماكن مسرحاً للحركة وتنقلاتها وتشغل الفضاءات التي يجد الناس فيها نفسهم حين يتركون أماكن اقامتهم الثابتة مثل الشوارع والأسواق والمناطق والمحلات والمقاهي وهذه الأمكنة يلجأ إليها الناس لتغير حياتهم علمياً واجتماعياًوما تعوَّدوا عليه[1]، فالمكان العام المفتوح مادياً يمتد بامتداد المناطق الطبيعية كالبحار والانهار والصحراء، وهذه الطبيعة تُعطي المكان ميزة جمالية وطاقات إيجابية ورمزية، وهي طوعاً للشاعر المبدع" فتأتي الأماكن في النص الشعري بأعتماد القدرة على الخلق والتركيب؛ لإخراج العلاقات الخفية بين ظواهر الأشياء، وخفايا تشعبات الأماكن"[2].

تُشكّل الأماكن المتوحة على أماكن مفتوحة أُخرى على امتدادها لوحة طبيعية في الهواء الطلق، وتكون أكثر شاعرية، وانفتاحها وتنوعها يعقُبها تنوع دلالاتها وأحداثها[3]، وفي نفس الوقت تشكل فضاءً رحباً غير مُقيّد بحدٍ أو حدود، وهو يُمثل الحرية والانطلاق (الانطلاق الحركي والنفسي والذهني) خصوصاً إذا كان مرتبط بالحرية فيعبر الشاعر عن ضغطهِ النفسي وقهرهِ المعنوي مما يُعطيه فرصة كبيرة لتشكيل مكان مفتوح في مخيلتهِ بما يشتمل عليه من ألوان ورؤى وما يتضمنه من ماضي وذكريات بالنسبة للشاعر، لإنها تُمثل مرحلة من مراحل حياته، فينطلق بالتعبير عنها مكوناً في خياله مكاناً مفتوحاً كالمراعي والبساتين والحدائق، فالذاكرة وما تحملهث من ذكريات احياناً تكون مؤلمة واحياناً مُريحة وأليفة، فحاضرنا هو مشهد للمكان المفتوح الذي لا يمكن أن يتجرد أو ينعزل عن الماضي الذي هو مادة خصبة للمستقبل يلونها ويرقبها الشاعر في خياله، إذ إن في بعض الأحيان الأماكن المغلقة يأبى الشاعر أن تكون مغلقة فيحولها إلى أماكن مفتوحة عبر فضاءات تتولد في خيالِهِ[4].

وحالة الابداع هذه التي يصل إليه الشاعر تتطلب خلفية ثقافية يستوحيها الشاعر من البيئة فضلاً عن إدراكه لعناصر المكان والتمعُن بجمالياتهِ، ولا يتوقف وصف المكان على إظهار هذه

[1] مصدر سابق، ص196-197.
[2] جماليات المكان في الشعر العباسي، ص57.
[3] حسن بحراوي (1990م): بنية الشكل الروائي، ط1، بيروت، المركز الثقافي العربي: 90
[4] جماليات المكان في شعر تميم البرغووثي: 88.

الجماليات، بل يتعداها لإلى تحديد علاقتهِ بالناس، وهذا التداخل بين الأشياء وإدراكها وعلاقتها بالمكان هي التي تعطي الشاعر مرونة في وصف جمالياتِهِ ووصفه بأنه الوعاء الذي يحوي النشاطات والأحداث الاجتماعية والتاريخية التي يستلهم الشاعر منها أفكارهِ ونُظُمِهِ[1].

إن سعة المكان محفزاً لخيال الشاعر الذي يُحاكي المظاهر الجمالية لهذا المكان الواسع بصور مماثلة لها في الذاكرة، فوجود الشعراء على امتداد الدولة العباسية تحسسوا جمال هذه الأماكن الواسعة[2].

والشاعر الوأواء واحداً منهم، إذ رَصَدَ الأماكن الواسعة وتغنى بجمال الرياض والبساتين فقال:

لـــدى شَجَرُ رافعـات الـــذيـــولِ لِجْـــري الـــجـــداولِ فيهـــا شهيـــقُ
كـــأن طيـــالسِ غُـــدرانـــهـــا علـــى هيـــكـــل الماء فيها خروقُ[3]

إن سعة المكان فتحت آفاق الخيال لدى الشاعر وأمدتْهُ بما يُحاكي المظاهر الجمالية للمكان، من صور مثيلاتها في خزين الذاكرة[4].

فأطلق الشاعر لنفسه العِنان وسط أحضان الطبيعة، فيأتلف مع موجوداتها من الأشجار والجداول وغُدران الماء وأظهرت لغة أبياته هذه بشكل واضح تغني الشاعر بالخمائل المرطبة بالَّل النِدّي المزدهرة بفضل الجداول الرقراقة ليصور لنا لوحة تشترك فيها العناصر المكوّنة لمادة الجمال الطبيعي في دمشق.

فالمكان الواسع يساعد على الإحساس بالجمال ومظاهره المتعددة بما يتضمنُه من شمولية وسعة ويساعِدهُ على التأمل والاسترخاء واستحضار الذهن؛ لينسج من خياله نظماً يصف فيه جمالية المكان وروعتهِ؛ لذا نجد شاعرنا الوأواء قد استنزف ناظرهُ فرأى الجمال المنبت في الازهار والاغصان الخضراء فوصَفهُ إذ قال:

ما العيـــش إلا في الرياضِ ومسمعٍ غُـــردٍ وســـاقٍ إنّ سقى لـــم يعـــدلِ
فـــإذا دعـاك العيشُ في خلساتِـــهِ فـــأركض إليـــة فـــي الرعيـــل الأولِ[5]

---

[1] جماليات المكان في الشعر العباسي: 57.
[2] الديوان، ص137.
[3] الديوان، ص157.
[4] جماليات المكان في الشعر العباسي: 137.
[5] الديوان، ص13-14، ص85، ص121.

وفي هذين البيتين دعوة صريحة للعيش في ظلال الرياض الوارقة بعد أنَّ إستثارت أحوالها مشاعِرهُ وحركت نوازعهُ، وأظهرت الارتياح النفسي والأُنس بين ساقي يَسقي الخَمر وغناء الغانيات، ويحفل الشاعر بأحاسيسهُ ومشاعِرهِ مندمجًا بأجواء تمثلت فيها البهجة والمُتعة الحسّية، وتكافلت على تكثيفِهِ حواسِهِ البصرية والسمعية واللمسيّة، وتجلت المُتعة بصورها المختلفة مِما جَعَلتهُ ينصح أو يوجه اصدقائهِ إلى ذلك المكان الذي اشعرهُ بالراحة والأُلفة فيخبرهم أنَّ لا يترددوا إنّ سنحت لهم الفُرصة للاستمتاع واللذات بل يُسارعوا إليها، فاللذة هي هدف الشاعر جَسَّدها في وجهين هي الخمرة والمرأة، وهو بهذهِ الرؤيا يقترب من فكر (الابيقورية)[*].

وهذا المذهب يَرى أنَّ الحكمة ليست في الاعتصام والزُهد بل في سِرقة لذائذ الحياة أينّما وجدت، والتمتع بكلِ لحظة من لحظاتها، فيبين الشاعر هنا أنَّ الحياة لا قيمة لها وليس هناك فضائل يمكن التمسك فيها أو يعتنقها أو يُضحي في سبيل تحقيقها وإنّما هناك شيء واحد حَري بالإنسان أنَّ يَتحراهُ هو اللذة[1].

الخاتمة:

لقد كان المكان ولا يزال وثيق الصلة بالشعر والشعراء منذ القدم وحتى العصر الحديث، فلا يكتمل الشعر والقصيدة اذ لم يكن للمكان الأليف إشارة فيه، فالشاعر الوأواء تغنى بالحدائق والرياض ووصف ألوانها وسحرها، اذ مثلت الطبيعة التي وصفها شاعرنا في شعره بمظاهرها الجميلة ومساحتها اللاّ محدودة من جبال وصحاري ورياض مصدر الهام للشاعر فجاء شعره واصفاً لمشاعره واحاسيسه وما يحمله المكان من جمال واحساس بالراحة والهدوء والمتعة واضحاً في قصائدهِ، وبهذه الكلمات يتضح ان للمكان حضوراً قوياً في النفس الإنسانية؛ لأنه يختزن فيها عواطفه وذكرياته الإيجابية والسلبية، وكان ارتباط المكان بالحالة الوجدانية للشاعر واضحاً في العصر الجاهلي والعصور التي اعقبته وهذا جعل الشاعر يعيش بين حالتين، حالة داخلية متمثلة بمشاعره ووجدانه وما تحمله من مشاعر اتجاه المكان، وحالة خارجية تتعلق بطبيعة المكان وما يتخللها من صور ومظاهر.

التوصيات:

إن الوأواء شاعر عربي يُعدّ من الشعراء البارزين في العصر العباسي الذي عاش فيه الشعر مرحلة ازدهار لم تسبق من قبل لذلك لابدّ للباحث الجاد إعادة النظر في دراسة الجوانب الأدبية التي لم يشر اليها من سبقه من الباحثين لا سيما غرض الوصف.

[1] الزمان والمكان في الشعر الجاهلي، ص107.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن حوقل (أبي القاسم بن حوقل النصيبي) (1992م): صورة الأرض، ط1، القاهرة، مكتبة.
- أبي الفرج الأصيبهاني (1991م): الديارات، ط1، منتدى سور الازبكية.
- حربي نعيم محمد الشبلي (2002م): المكان في شعر أبي العلاء المعري، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القادسية.
- حسن بحراوي(1990م): بنية الشكل الروائي، ط1، بيروت، المركز الثقافي العربي.
- حسين محمد فهيم (1990م): أدب الرحلات، تح: أحمد مشاري القدواني، مصدر السلسة في يناير.
- سامي الدهان (1919م): المديح، ط5، القاهرة، دار المعارف للنشر.
- سعيد يقطين (1997م): قال الراوي البنيات المكانية في السيرة الشعبية، ط1، بيروت، المركز الثقافي العربي.
- شهاب الدين إبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي(1956م): معجم البلدان بيروت، دار صادر.
- شيماء نجم عبد الله (د.ت): الخمريات في شعر الوأواء الدمشقي، مجلة كلية التربية الأساسية، جامعة بغداد، مج (20)، ع (83).
- عصام لُطفي صباح (2016م): الصورة الفنية في شعر الوأواء الدمشقي، ط1، عمان، دار زهدي للنشر والتوزيع.
- علي يوسف القفطي (1970م): المحمدون من الشعراء، تح: حسن معمري، جامعة باريس.
- الغزولي (1300هـ): مطالع البدور، ط2، مطبعة إدارة الوطن.
- قصي جاسم الجبوري (2018م): تجليات المكان في الرواية (رواية تحسين كَرمياني أنموذجاً)، ط1، دمشق.
- ماجد حميد فرج (1999م): الرحلة في أدب أبي العلاء المعري، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة المستنصرية.
- محبوبة محمد آبادي(2011م): جماليات المكان في قصص سعيد حورانية (دراسات في الأدب العربي)، ط1، دمشق، منشورات الهيئة العامة السورية للكتّاب، وزارة الثقافة.

- محمد زغلول سلام (1999م): الأدب في عصر العباسيين، ط1، القاهرة، مركز الدلتا.
- مصطفى الشكِعّة (1986م): الشعر والشعراء في العصر العباسي، ط 6، بيروت، دار العلم للملايين.
- مصطفى الشكعة (1958م): فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين، القاهرة، مطبعة المعرفة للنشر، عالم الكتب.
- مصطفى سويف (د.ت): الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصةً، ط4، القاهرة، دار المعارف للنشر.
- مهدي عبيد (2011م): جماليات المكان في ثلاثية حنا مينة (دراسات في الأدب العربي)، ط1، دمشق، منشورات الهيئة العامة السورية للكتّاب، وزارة الثقافة.
- ناظم رشيد (1989م): ا لأدب العربي في العصر العباسي، جامعة الموصل دار الكتب للطباعة والنشر.
- نصيف أحمد أمين، زكي نجيب محمود (1936م): قِصَّة الفلسفة الحديثة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- يوسف حسين بكار (1981م): إتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري، القاهرة، دار المعارف للنشر.